ليس كما يظنُّون

إعداد

عبد الرحمن بن طه بن عبد القادر الحبشي




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد.

فإن النطاق الذي هو محل تأثير العالم والجهة التي يتخاطب معها المرشدون والمصلحون والتي يعنى بها الفقهاء ويكرسون جهودهم في تثقيفها ويحرصون على الرفع من

مستواها هم العامة أعني عامة الناس ، القاعدة الشعبية الشاملة للأسرة والطلاب وبقية شرائح المجتمع ممن يعنيهم العالِم بخطابه ويقصدهم بوعظه وإرشاده.

لكل مجتمع قيم وثوابت يتم من خلالها وفي نطاقها تعامل العالِـم مع مجتمعه ، وبما أن دوام الحال من المحال فإن العامة تختلف مستوياتهم من عصر إلى آخر من قوة إلى ضعف ومن ضعف إلى قوة ، فلما أُلف كتاب منهاج الطالبين للإمام النووي يصف

أحدهم سهولته بقوله: (تفقه البقالة) بينما اليوم ربما يكون العقبة الكؤود أمام عامة الطلاب ، وكان الحبيب عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف يدرس في ذلك الكتاب في مسجد الحبيب طه بن عمر ملتزما بعبارة التحفة والنهاية فكيف لو فُعِلَ مثلُ فعله في مسجد طه أو غيره ، هل يصبر الطلاب فضلا عن غيرهم على الحضور لسماع ذلك ، كل ذلك ينبيك عن اختلاف مستوى العامة ، وذلك من خلال مفاهيم التحاور

والتخاطب بين العالِم والعامة واختلافها وظهورها في عصر وخفوتها في عصر آخر ، أو غيابها بالكلية فلذلك فإني في هذه المحاولة ألفت نظر الباحثين والمؤلفين الحرصين على إفادة عامة الناس بما يؤلفونه ، **أن الحاجة داعية بإيجاد مؤلفات تعنى برفع مستوى التفكير عند عامة الناس ومؤلفات تهتم بترسيخ لغة التفاهم الفكري بين عامة الناس وبين علمائهم ، وذلك من خلال الحفاظ على المفاهيم الأصيلة ، وإظهار الخافت منها**

وتصحيح المفاهيم التي ظهرت إثر طفرة التغير
.

ومشاركة في هذا المجال أحاول أن أنبه على بعض المفاهيم التي أرى أنها قد خفيت على عامة الناس في عصرنا الراهن ، والتي قد يسبب عدم ظهورها أو عدم فهمها على وجهها الصحيح إلى إعاقة في التفكير وتدنى كبير في مستوى عامة الناس مما يؤدي إلى إرباك العالِم وتقييده بحبائل المستوى التفكيري عند عامة الناس مما يدخله في

إشكالات معرفية وعلمية.

أهمية الكتابة في هذا المجال :

إن لغة التفاهم بين العالم وعامة الناس تقوم على أسس فكرية مركوزة في الذهن ، ولما كانت عامة الناس تتأثر لغتهم بلغة غيرهم ممن خالطهم من أهل الثقافات المختلفة تأكد إبراز هذه الأسس المبني عليها التفاهم والتخاطب في رسالة مقرؤة يرجع إليها من أراد الحفاظ على المستوى المثالي في

لغة التخاطب ويتذكر بها الغافل . وهذه الرسالة تعد بمثابة مقدمة لفهم جهود العلماء الغير مكتوبة ، أما جهودهم المكتوبة فكل عالم سيبين فيما كتب اللغة التي توضح ما كتب ويبين المصطلح الذي جرى عليه في كتابه. وهذا أوان الشروع في المقصود :

بعض المفاهيم التي نحتاج أن نقف عندها ونتأملها وننشرها في أوساط عامة أهل زماننا

منها :

١. ليس كل ما فعله العالم يجوز فعله لعامة الناس :

كثير من الناس يحاولون أن يتبعوا العلماء في كل فعل فعلوه من دون أن يرجعوا إلى العالم نفسه واستفساره ، فربما العالم أخذ برأي في مسألة ماء فعمل بها فرءاه بعض عوام الناس وبعد مدة رجع العالم عن ذلك ورأى أن الصواب عدم فعله ، أو أنه فعله لضرورة اقتضت فعله أو قد يكون قد أخطأ في فعله ولكن العامي لا يعرف ذلك ويستمر

على العمل فهو يقلد في فعل من رجع عن فعله ، ولذلك قال الحبيب أحمد بن زين أن عامة الناس يأخذون زلات العلماء حجة .

وقال الإمام الحداد في رسالة المعاونة : فإذا رأيت العالم في هذا الزمان يفعل شيئاً أو يتركه مما يُجهل كونُه حقاً أو باطلاً فلا تكتفي بمجرد رؤيته في الفعل أو الترك حتى تسأله عن وجه ذلك في الشرع وحكمه من الدين ، و من سوء أحوال الزَّمان وأهله ، أن يقتدي الإنسان بالآخر في مثالبه وأحواله المذمومة ،

ويترك أن يقتدي به في محاسنه وآدابه ، وفي هذا بليتان إحداهما أنه تضرر باقتدائه ، والأخرى أنه نبهه على أمر كان غافلاً عنه ، أو غير غافل ولكن السكوت عنه أجمل ، فلا تقتد إلا بالأحسن ، ولا تنقل إلا الأحسن ، وهذا الاقتداء على هذا الوجه غالب على أهل هذا الزمان أهـ .

٢. العلم والدعوة :

إن عامة الناس يحسبون أن العلماء الذين يقومون بنشر علمهم من خلال عقد حلقات

التعليم أو من خلال الرد على أسئلة الناس ليسوا من صنف الدعاة إلى سبيل الله حتى قد يصدر من بعضهم حث لبعض العلماء على الخروج في الدعوة ظنا منهم أن مفهوم الدعوة هو الخطاب المرصع بعد الصلوات ، لكن لعل الصواب أن كل عالم هو داع إلى سبيل ربه ؛ لأن الدعوة إلى الله لا تنحصر في أسلوب معين ونحن في العصر الراهن كاد أن ينفصل مفهوم الدعوة عن مفهوم العلم كما انفصلت السياسة عن الدين عند بعض

المخالفين ، فإن الدعوة في مفهومها الصحيح لا تكون إلا بالعلم ولا نحتاج في رأيي في الوقت الحالي أو المقبل أن نعدَّ دعاة من غير علم لأن عامة الناس يفهمون أن كل داع عالم ؛ ولذلك فإن بإعداد دعاة خالين عن العلم تدليس على عامة الناس وبذلك يحصل الخلط والخبط فيسأل الداعي فيجيب وهو على غير علم فهو من الرؤساء الذين اتخذهم الناس كذلك فأفتوا بغير علم فضلوا و أضلوا .

٣. عندما يرجح العالم مسألة من المسائل

التي اشتهر بالقول بها مثلا جماعة من المسلمين المخالفين لما عليه عامة أهل السنة والجماعةً فيظن كثير من العامة أن ذلك العالم ينتمي إلى تلك الجماعة ويلزمه مذهبهم ، وهذا مخالف للصواب فمن يقلد الإمام مالك في مسألة ما لا يقال أنه مالكي المذهب نعم قد يقال أن مالكي في هذه المسألة ، هذا إن كان مقلدا وأما إن كان من أهل النظر كنماذج كثيرة من سلفنا الصالح فلا وإنما وافق قوله قول

الإمام مالك . ومثل ذلك ما نقل عن الحبيب حسن ابن صالح البحر والحبيب علوي بن سقاف الجفري وغيرهم كما في المحاضرة وإدام القوت للعلامة ابن عبيدالله فهولاء ظهر لهم دليل لبعض المسائل ففهم عامة الناس أنهم منتمون لطائفة معينة وكأن قواعد مذهب تلك الطائفة هي تلك المسألة فقط .

كذلك إنكاره مسألة من المسائل التي اشتهرت بها جماعة من المسلمين لا يعني هذا

أنه منكر لكل مسائل هذه الجماعة ، والحاصل أن اللفظ لا يكلف أكثر من معناه .

٤. إن العالِم المربي الناصح إذا نبه على بعض الآداب وعلى مسألة الإتزان السلوكي وعدم الانخداع بالمظاهرفيظن عامة الناس أنه يقصد بكلامه هذا أناس معينين ، وأنه مختلف معهم ولا يحبهم وهو يريد أن ينتقصهم ،وبدلاً أن يستفيدوا من هذه الموعظة قاموا بتصنيف

هذا العالم وجعله من المعارضين والمعادين وغير ذلك ، وهذا الفهم الخاطئ قد يسبب إحجام بعض العلماء عن النصيحة التي أصبحت لا تجدي نفعا بسبب فهمها الفهم الخاطئ.

٥. معايير التزمت والتطرف والتشدد والتسيب :

إن هذه المعايير مضطربة جدا عند عامة الناس تتدخل في تحديدها العواطف والمصلحة الشخصية ، فقد يُعد الشخص متطرفا ومتشددا عندما يأمر بمعروف

أوينهى عن المنكر ، وقد يعد متسيبا عندما يفتي أو ينصح برأي فيه شيئا من السهولة لعامة الناس مثلاً .

٦. المثالب والمناقب :

إن عامة الناس عندما يقرأ مناقب عالم أو ولي من الأولياء ، يظن أن هذا المترجم لم يرتكب ذنبا قط وأن هذه النوعية قد عدمت في مجتمعاتنا ، وأنه لا يمكن أن يكون هو نفسه مثل ذلك الولي فيحصل له اليأس من رحمة الله ، ولا ينبغي مثل هذا الفهم فإن

الأولياء والعلماء لهم مثالب ، ولكن لأن كتب التراجم لا تذكر شيئا من المثالب لأنه واضح وجلي لديهم أنه ليس أحد معصوم من البشر إلا سيد البشر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .فلعلنا نحتاج فيما نكتب من تراجم في العصر الراهن أن نذكر بعض المثالب من التنازع والخصومة بين العلماء لكي نبين أن من كان هذا وصفه لا ينقطع عنه فضل الله فالله يمن على المستحق وغيره ، وأن كل من تاب تاب الله عليه وأنه لا يُيأس

من رحمة الله تعالى .

٧. إذا سئل العالم عن مسألة فقال : الله أعلم ، لعدم علمه أو تردده أو عدم استحضاره لها ، فإن عامة الناس يقولون عنه أنه جاهل ، وينصرفون عنه وخاصة عندما يتكرر منه ذلك ، والمفهوم الصحيح الذي ينبغي أن يترسخ عند عامة الناس أن من يقول الله أعلم ينبغي ملازمته ومجالسته والأخذ عنه ؛ لأن قوله ذلك يدل على علمه وعلى ورعه ،

والإنسان قد ينسى وقد لا يعرف بعض مسائل العلم.

مـــا حـــوى العلـــم

جميعا أحد ا

لا ولـــو مارســـه ألـــف

سنه ا

إنـــما العلـــم كبحـــر

زاخـــــــــــــر

ا

فاتخــذ مــن كــل شيء أحسنه ا

قال الإمام علي : ما أبردها على الكبد إذا سئل الرجل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، وقال أبو موسى: من علمه الله علما فليعلمه الناس وإياه أن يقول مالا علم له به فيصير من المتكلفين ويمرق من الدين ، وقال ابن مسعود : إذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقراء ولا يستحي .

وقد سئل القاضي أبو يوسف عن مسألة

فقال الله اعلم ، فقيل له تأخذ رزقا على وضيفتك وتقول الله اعلم ، قال إنما أخذت على قدر علمي أما لو أخذت على قدر جهلي لربما لا يكفني بيت المال أو قريبا من هذا اللفظ ، وحكي أن عالما سئل وهو على المنبر فقال الله اعلم فقيل له ليس المنبر موضع الجهال فقال إنما علوت المنبر بقدر علمي ولو علوته بقدر جهلي لبلغت السماء [1].

٨. تعدد الشيوخ :

---

(١) هذا منقول من كلام الحبيب أحمد بن حسن العطاس المسمى تنوير الأغلاس .

كثير من الناس يقتصر على شيخ واحد ولا يأخذ العلم عن غيره اعتقاداً أن ذلك لا ينبغي ،لكن الأخذ عن أكثر من شيخ لا يعني إساءة أدب للشيخ الأول ولو نظرنا إلى العلماء السابقين نجد أنهم أخذوا عن عدد كثير من المشايخ فبلغ عدة شيوخ الإمام الحداد نحو المائة شيخ ، وكان الحبيب أحمد بن زين له مشايخ كثر ، والحبيب علي بن محمد الحبشي أخذ أخذ أيضا عن شيوخ كثر .

٩. ما رأيكم لو قال عالم بحكم في مسألة ما ثم بعد مدة رجع عن ذلك ماذا يقول عنه عامة الناس؟! أليسوا يضعون من قدره .

إن تغير العالم في رأيه في الغالب يدل على شدة ذكائه وعلى إنصافه وعلى سعة علمه ، وأن علمه ليس جامدا بل دائما في زيادة وقد ألف الإمام الشافعي المذهب القديم ثم رجع عنه وألف المذهب الجديد ، قال شيخنا فضل بن عبدالرحمن بافضل ولو عاش الشافعي لصنف مذهبا ثالثا لشدة ذكائه ،

هذا في شأن العلماء ، أما أدعياء العلم الذين ليس لهم ناقة ولا بعير في طلب العلم فتغير رأيهم يدل على التسرع وعدم التثبت .

١٠. الاختلاف العلمي بين التلميذ والشيخ في مسألة ما لا يعني سوء أدب من التلميذ تجاه الشيخ ولا يعني عدم محبة الطالب لشيخه كما يظنه عامة الناس وقد ألف الحبيب علوي بن سقاف الجفري رسالة في النذر بنصيب أحد العمين وخالف في ذلك أحد مشايخه لعله

الحبيب عبدالله بن حسين بن بلفقيه ثم قال أعني الحبيب علوي بن سقاف ما نصه :

لا يظن الواقف على هذا الكتاب أنى أردت بما سبق به القلم من الخشونة في بعض الألفاظ الحط في قدر هذا السيد الكريم ، لا والله ، وإنما ذلك شأن البشر ، وانظر إلى كلامه[١] نفع الله به حيث قال : وليس اعتراض بعض العلماء على بعض وتغليطهم

(١) يعني به شيخه الحبيب بلفقيه المذكور .

في بعض المقالات من التنقيص المذموم ، بل كما قال بعضهم أنه أمر ممدوح في الشرع ... إلى أن قال حتى أن التلميذ بل الولد يخطئ شيخه ووالده ... الخ ما قال وما أحسن ما قال ، وأنا أقول اعتقادي في هذا السيد الكريم أنه عين الزمان والمشار إليه بالبنان للبيان في هذا الأوان ، ولقد اتفقتُ به فوجدته بحرا لا تغيظه الدلاء وبدرا لا يغطِّى نوره العشاء ، وسمعت منه حديث الأولية وطلبته منه الإجازة فأجازني وأشرك

معي ولدي في جميع مروياته وأوعدني أن يكتب لي أسانيده المتصلة بعلماء الإسلام فأنا منه في رجاء ذلك فهو عندي من أجل مشايخي الذي أروي عنهم بالإجازات ..أهـ

١١. استفسار العالم من طلابه واستفادته علميا منهم لا يدل ذلك منه على ضعف علمه عنده بل يدل على رجاحة عقله وسعة علمه لا كما يظنه عامة الناس .

١٢. انتشار كتب العالم واشتهاره ليس يعني أنه الأفضل و ليس مسوغا لتقديمه على

غيره فقد تساعد عوامل أخرى على الانتشار كالغنى وغيرها كما أن ظهوره في التلفاز لا يعد دليلاً أفضليته كما لا يخفى .

١٣. عامة الناس يظنون أن العالم هو من له تأليف وأن الفقيه هو من له مؤَلف في الفقه وهذا مخالف للصواب فعلم الإنسان ما في نفسه لا ما يحكيه بلسانه أو يكتبه بقلمه كما يشير إليه بعض كلام الحبيب أحمد بن زين في قرة العين ، وليس كل من ألف كتاباً أو حققه يعتبر عالماً

فالعلم أوسع من أن يقصر على تأليف كتاب فالكتابة قد تنمق وترتب ، وقد ينقل كلام غيره وهو غير فاهم له فيغتر به عامة الناس .

١٤. لا عصمة للشيوخ فمن ادعى العصمة لشيخة فقد يرحم بركته قال القشيري في رسالته ولا ينبغي للمريد أن يعتقد في المشايخ العصمة بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم؛ فيحسن بهم الظن ويراعى مع الله تعالى حده فيما يتوجه عليه من الأمر.

والعلم كاف في التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول.

١٥. إن عامة الناس يميلون ويفضلون الاستفادة العلمية من العلماء الجائين إليهم من خارج بلدهم فيحرصون على حضور محاضراتهم ودروسهم ولا يحرصون على حضور دروس علماء بلادهم ولا يستفيدون علميا منهم ظنا منهم أن علماء بلادهم ليسوا أصحاب كفاءة فينبغي علينا أن نشجع علماء بلادنا ونحضر

دروسهم ونشجعهم ونشد من عزمهم في إقامة الدروس لأن ذلك سيجعل بلادنا عامرة بالعلم والعلماء.

١٦. ليس كل من حافظ على الصلاة على الآل أو أثنى عليهم أو ألف كتبا فيهم يعد شيعيا لأن التشيع مذهب له مخالفاته المعروفة من سب الشيخين وغيرها.

١٧. ليس كل من يظهر في التلفاز محاضرا عالما، وليس كل من لبس عمامة يعد من العلماء وليس كل من لم يلبس عمامة ليس

بعالم.

هذا ما حضرني الآن والله الموفق ونسأله الهداية للصواب .

وكتبه الفقير إلى عفو الجواد الغني

عبدالرحمن بن طه بن عبدالقادر الحبشي

بتاريخ محرم ١٤٣١هـ

الموافق ٣٠/ ديسمبر ٢٠٠٩م